

العدالة حيال السلطة حوار بين تشومسكي وفوكو*

زينب العسكري**

تشومسكي: في البداية دعني أرجع إلى موضوع سبق وأن ناقشناه إذا كان صحيحاً؛ وأنا أؤمن بأنه كذلك، مفاده أن العنصر الأساسي للطبيعة الإنسانية هو الحاجة إلى العمل الإبداعي، والبحث الإبداعي، الإبداع الخالي من كل تعسف، والذي يحد من دمار المؤسسات القسرية؛ هذا بالطبع يتبع بضرورة زيادة الإمكانيات لتحقيق هذه الميزة الإنسانية الأساسية وهذا ما يتطلبه كل مجتمع لائق.

هذا يعني القضاء على كل عناصر الزجر، القمع، التدمير، والضغط الموجودة في كل مجتمع، كمجتمعنا مثلاً، كرواسب تاريخية، إن النظام الفيدرالي اللامركزي للجمعيات والتعاونيات الاقتصادية والمؤسسات الاجتماعية كان راجعاً إلى العمل النقابي_الفوضوي، وبدولي أن هذا هو الشكل المناسب للتنظيم الاجتماعي لمجتمع متقدم تكنولوجياً، أين لا يتم تحويل البشر إلى عناصر آلية، لا توجد أي حاجة اجتماعية تجبر على أن يعامل البشر كحلقات في سلسلة الإنتاج، حيث أن الغريزة الإبداعية كما أتصور تعود إلى الطبيعة الإنسانية القادرة على تحقيق نفسها بنفسها بشكل كلي وبالطريقة التي ستقررها، ولا أعرف كل الطرق التي تؤدي إليها.

فوكو: موقفي أقل تقدماً، فانا أذهب إلى أقل بكثير مما يذهب إليه السيد تشومسكي. بمعنى أنا أعترف أنني غير قادر على شرح ولا عن

اقترح نموذجا مثاليا للعمل الاجتماعي لمجتمعنا العلمي أو التكنولوجي. بالمقابل من بين المهمات التي أراها مستعجلة ومباشرة قبل كل شيء أخرى التالية؛ لقد تعودنا على الأقل في مجتمعنا الأوروبي، إلى النظر على أن السلطة محصورة في يد الحكومة والتي تمارس من خلال عدد من المؤسسات المختصة بشكل جيد والمتمثلة في الإدارة، الشرطة، الجيش. ونعلم أن هذه المؤسسات وجدت من أجل فرض الأوامر، والعمل على تطبيقها ومعاقبة الأشخاص الذين لا يطيعون. لكن أظن أن السلطة السياسية تمارس دائما، تمارس بالإضافة، وبالأكثر بواسطة عدد من المؤسسات التي تظهر بذلك الشكل والتي لا تشترك مع السلطة السياسية في أي شيء، وتظهر بأنها مستقلة عنها ولكنها ليست كذلك؟ نعلم جيدا أن الجامعة وبصفة عامة كل النظام المدرسي والذي يتظاهر بأنه وجد من أجل تحقيق المعرفة بكل بساطة، نعلم بأن هذا الجهاز المدرسي وجد من أجل إبقاء طبقة اجتماعية معينة في السلطة وإقصاء طبقة اجتماعية أخرى عن طريق وسائل تستخدمها السلطة. شيء مثل الطب العقلي الذي هو الآخر يتظاهر بأنه متجه لخير الإنسانية فقط في حين يرى الأطباء العقليين أن هذا الطب العقلي ما هو بالنتيجة إلا وسيلة أكيدة لفرض سلطة سياسية على فئة اجتماعية. والأمر ذاته بالنسبة للعدالة، إذن... يبدو لي أن المهمة السياسية الحالية في مجتمع كمجتمعنا تتمثل في نقد لعبة المؤسسات التي تظهر أكثر حيادية واستقلالية، نقدها ومهاجمتها بطريقة تظهر العنف السياسي الذي كانت (المؤسسات) تمارسه في السابق بغموض لكي نستطيع محاربتها. وإن لم نقم بنقد كل أشكال العنف السياسي جيدا التي تمارس في مجتمعنا فإننا نخشى أن تتركب

من جديد حتى وإن ظهرت في أشكال نبيلة وظاهريا نزيهة كشكل النقابة-الفوضوية.

تشومسكي - " نعم، أنا بالتأكيد أوافق على هذا، ليس فقط نظريا، وإنما فعليا كذلك. هناك مهمتان فكريتان، إحداهما هو ما أناقشه والتي تكمن في محاولة خلق رؤية لمجتمع مستقبلي عادل. والثانية تكمن بوضوح في فهم طبيعة القوة، القمع، الرعب والتدمير في مجتمعنا في حد ذاته. وهذا بالتأكيد يتضمن المؤسسات المذكورة، مثل المؤسسات المركزية لكل مجتمع صناعي، أعني المؤسسات الاقتصادية، المالية والتجارية. خاصة في الفترة المقبلة، أين تكون الشراكة الكبرى المتعددة الجنسيات والتي ليست بعيدة عنا اليوم. هذه هي المؤسسات الأساسية للقمع، والإكراه والحكم الأوتوقراطي (الاحتكاري) التي تظهر وكأنها حيادية، بعد هذا كل ما تقوله: " نحن تابعون لديمقراطية الأسواق".

أظن أنه عيب كبير أن نستبعد المفهوم الأكثر تجريدا وفلسفة لرسم العلاقة بين تصور الطبيعة الإنسانية المفعمة بالحرية، الكرامة والإبداع مع المميزات الإنسانية الأساسية، وربط هذا التصور بفكرة التركيبة الاجتماعية، حيث يمكن تحقيق هذه الخصائص وحيث يصبح لحياة الإنسان معنى. في الحقيقة، إذا فكرنا في التغيير أو الثورة الاجتماعيين حتى وإن كنا نرى أنه من العبث أنه بإمكاننا الشرح التفصيلي للهدف الذي نريد الوصول إليه، يجب علينا على الأقل أن نعرف أين نعتقد أننا ذاهبون، وهذا النوع من النظرية يمكن أن يخبرنا بذلك.

فوكو:- نعم، ولكن هنا ألا توجد مجازفة؟ إذا قلنا بأن هناك نوع من الطبيعة الإنسانية، وبأن هذه الطبيعة الإنسانية لم تتحصل في المجتمع الحالي على الحقوق وعلى الإمكانيات التي تستطيع من خلالها أن تتحقق، إذا سلمنا بهذا ألا نجازف بتعريف الطبيعة الإنسانية بأنها مثالية وواقعية في الوقت ذاته، مخبأة ومقموعة لحد الآن، ألا نجازف بتعريفها بمصطلحات نستعيرها من مجتمعا، من حضارتنا، من ثقافتنا؟ مفهوم الطبيعة الإنسانية من هذا المنطلق وكما سبق وان إعترفت في البداية أنك تجهله ألا ترى بأن هذا التعريف يجرنا إلى الخطأ؟ أنت تعرف أن ماوتسي تونغ تحدث عن طبيعة إنسانية بورجوازية وطبيعة إنسانية بروليتارية ؟ وفي تقديره أنهما ليس شيئاً واحداً.

تشومسكي:- حسن، أنا أرى بأنه في المجال الفكري للممارسة السياسية أين نحاول تشكيل رؤية لمجتمع عادل وحر إنطلاقاً من مجموعة مفاهيم للطبيعة الإنسانية، نصطدم بنفس المشكل الذي نصادفه في الممارسة السياسية المباشرة. مثلاً، وبشكل ملموس فإنني كرسيت الكثير من نشاطي في حرب الفيتنام وإستنزفت الكثير من طاقتي في العصيان المدني. نجد في الولايات الأمريكية المتحدة أن العصيان المدني يمثل فعل ذو أثار معتبرة تحمل في طياتها الكثير من الشكوك. مثلاً، فهو فعل يهدد النظام الاجتماعي بطريقة يمكن أن تؤدي إلى الفاشية وهذا سيكون أمر سئ بالنسبة لأمريكا، الفيتنام، الدول الأسكوندونافية وكل البلدان الأخرى. إذن هناك خطر في هذه الممارسة. من جهة أخرى، إن لم نقم بهذه المجازفة فإن مجتمع الهند الصينية تتم تجزئته إلى قطع من طرف القوة الأمريكية. ولمجابهة هذه الشكوك يجب اختيار نموذجاً للفعل، ونفس الشئ بالنسبة للمجال الفكري أين نجد الكثير من

الريب. إن تصورنا للطبيعة الإنسانية بالتأكيد محدود؛ فهو من جهة مشروط اجتماعيا، من خلال أخطائنا في التعامل، وحدود الثقافة الفكرية التي نعيش فيها. وفي نفس الوقت ومن الأهمية بمكان أن نتعرف على الأهداف المستحيلة التي نريد الوصول إليها، إذا كنا نأمل الوصول إلى بعض الأهداف الممكنة. هذا يعني أنه يجب علينا أن نتحلّى بالجرأة الكافية لإعطاء الفرضيات واختراع النظريات الاجتماعية انطلاقا من معرفة جزئية، مع البقاء منفتحين على الإمكانية الكبرى، وفي الحقيقة على الاحتمالية الساحقة للفشل الذي يترصص بنا على الأقل في بعض المجالات.

فوكو:- يبدو لي في كل الأحوال أن حتى مفهوم العدل يعمل من خلال طبقات المجتمع يظهر ذلك في مطالب الطبقة المستغلة وفي تبريرات الطبقة المستغلة.

تشومسكي:- يقاطعه، أنا لا أنفق مع هذا...

فوكو:- في مجتمع بدون طبقات لست متأكدا من أننا نستطيع استخدام مصطلح العدل.

تشومسكي:- حسن، هنا أنا لا أوافق، أنا أرى أنه توجد قاعدة مطلقة- إذا كنت تصر، سأجد نفسي في موقف صعب لأنني لا أستطيع أن أتوسع فيها بوضوح- هذه القاعدة تركز على الخصائص الإنسانية الأساسية والتي عليها يبني المفهوم الحقيقي للعدل. وأحكم أن هناك تسرع في تقويم نظمنا القضائية الحالية على أنها مجرد وسائل للقمع الطبقي وأنا أظن أنها ليست كذلك. أرى أن هذه النظم تجسّد أشكال أخرى من القمع ولكنها تمثل كذلك البحث عن المفاهيم الحقيقية

للعدل، للشرف، للحب، للطيبة والتعاطف، التي تعد واقعية حسب وجهة نظري.

فوكو: لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في عكس ما تراه حول الطبيعة الإنسانية، مفهوم الطيبة، العدل، ماهية الإنسان، وتحقق الماهية الإنسانية... كل هذا عبارة عن مفاهيم ومصطلحات تكونت داخل حضارتنا، في نوع معرفتنا، في نسق فلسفتنا، وبالنتيجة هذا ينتهي كذلك إلى نظام الطبقات عندنا، وللأسف لا نستطيع إضفاء قيمة لهاته المفاهيم من اجل وصف أو تبرير ثورة والتي من المفروض أن تقلب كل الأسس الموجودة في مجتمعنا. وهنا يوجد تعميم لا أجد له تفسيراً تاريخياً.

**باحثة من قسم الفلسفة، جامعة وهران

*المراجع

*Chomsky-Foucault: « Justice contre pouvoir » 1971
Tiré de Chomsky «L'Herne coll. « Les Cahiers de l'Herne » Paris ،
2007 p. 297-307.© L'Herne et Gallimard.

حوار في اللغتين الفرنسية والإنكليزية ما بين ميشيل فوكو ونعوم شومسكي. تم تسجيله في المدرسة العليا للتكنولوجيا، في نوفمبر 1971، وجرى بثه عبر التلفزيون الهولندي.